المبدأ

٧/ ١٠/ ١٤٣٦هـ

حدّثني أحدُ الأصدقاء أنه انخرط في لجنةٍ من اللجان، وحُدّد لها وقتٌ دوريٌّ تجتمع فيه، وكان رئيس اللجنة يحدّد الاجتماعَ بوقتٍ معيّن، فيقول صاحبي: كنتُ أحرص على الحضور في الوقت، ولكنني ضِقتُ ذرعًا بأكثر أعضاء اللجنة الذين يتأخرون من عشر إلى عشرين دقيقة عن الوقت المحدَّد! فقررتُ أن أتأخر مثلَهم، وصارحتُ رئيسَ اللجنة بذلك، إذِ التأخر -بحساب الزمن التراكمي- سأخسر معه ساعةً من الزمن خلال شهر، ونصفَ يوم في سنة، فقال لي رئيس اللجنة: لا تترك مبدأك؛ لأن غيرك لا يلتزم به! فانتفعتُ بكلمته هذه في حياتي.

هذا الموقف يتكرر في حياتنا بصور كثيرة، وعلى أصعدة مختلفة، فتجد كثيرًا من الناس يضحّي بمبادئه؛ لأن الآخرين أخَلّوا بها معه!

والمتأمل في السُّنّة النبوية يجد أن هذه القضية كانت واضحةً تمام الوضوح في سيرته ﷺ، فلم يكن ليترك مبادِئه وأخلاقَه لأن خصمَه أو الطرفَ الآخر أخلّ بها، أو قصّر فيها، فكم لقيَ مِن قومِه

ما لقـــي، وعانى ما عانى، فلم يجـــد منهم، -وهو في مقـــام القدرة على القصاص- إلا العفوَ والمسامحةَ؛ لأنها مبدأ عنده.

وفي سبيل ترسيخ الثبات على المبدأ، وعدم التنازل عنه لأن الشخص المقابل قصّر فيه؛ تأتي تربيـــةُ الله لنبيّه ﷺ بقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[الأعراف:١٩٩].

وكان النبي ﷺ يُربي أصحابَه عـــلى ذلك قولًا وعملًا، ومن ذلـــك: أن رجلًا قال: يا رســـول الله، إن لي قرابة أَصِلُهـــم، ويَقطعوني، وأُحسِن إليهم ويُســـيئون إليّ، وأَحلم عنهم، ويَجهلون عليّ، فقال: «**لئن كنتَ كما قلت، فكأنما تسَفُّهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهيرٌ عليهم ما دمتَ على ذلك**»(١).

ويقـــول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: ما منعني أن أشـــهد بـــدرًا إلا أني خرجت أنا وأبي حســـيل، قال: فأَخَذَنا كفارُ قريش، قالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده، ما نريـــد إلا المدينة، فأخذوا منا عهدَ الله وميثاقَه لنَنْصرفن إلى المدينة، ولا نقاتل معه، فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر؛ فقال: «**انصرفا، نَفِي لهم بعهدهم، ونستعين اللهَ عليهم**»(٢)، وقصة أبي جندل رضي الله عنه أيامَ صلح الحديبية ليســـت ببعيدة، وفي هذين الموقفين جميعًا -وغيرهما- يرســـلُ النبيُّ ﷺ رســـالةً واضحة، وهي أن الصدقَ والوفاءَ بالعهد دينٌ ومبدأٌ، لا يُتْركان لحرب، ولا عداوة.

---

(١) رواه مسلم (رقم٢٥٥٨).

(٢) رواه مسلم (رقم١٧٨٧).

وفي حياتنـــا اليومية قد يُبتلى بعضُنا بأنـــاسٍ -كما ابتُلي ذلك الصحابيُّ الـــذي وجد الجفاءَ من قرابتـــه، وكما ابتُلي صديقي الـــذي أشرتُ إليه- بموقفٍ لو أراد أن يعامِل بالمثل لســـاغ له ذلك، لكن هذا ليس من شأن النبلاء والكُمَّلِ من الناس؛ لأن العاقلَ يصون مبادئَه كما يَصون سُـــمْعتَه وعِرضَه.

ومن النماذج المشرقة من حياة الدعاة المعاصرين، ما ذكره الدكتور تقي الدين الهلالي عن نفســـه، في كتابه الماتع (الدعوة إلى الله في أقطار مختلفة)، حيث التزم مبدأ الصدق في جميع الأحوال والظروف الصعبة التي مرّ بها، واختار لنفســـه عدمَ الأخذ بالمعاريض -ولو مع الأعداء- لأنه يرى أن الداعيةَ يَسقط إذا لم يَصدُق، وأن تاجَ دعوته ورأسَ ماله فيها هو الصدق!

وما من شـــكٍّ أن التربية على هذا المبدأ ينبغي أن تبقى أصلًا لا يتنازل عنه الإنسان، ويبقى تقديرُ الشخص للمواقف الفردية، وما ينبغي تجاهها خاضعًا للظـــروف المحيطة بكل موقف، والموفَّق من رُزِق الحكمة، ومن يؤتَ الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا.